البَابُ الخَامِسُ

حكم بعض المأكولات الأخرى

الخيل . الحمير . والبغال . والقطط . الكلاب . الثعابين . الحشرات . البيض . اللبن . المحرمات غير الحيوانية . النباتات . الملح .

الخيل :

انتشرت عادة أكل لحوم الخيل من بلاد المغول فى وسط آسيا ، حيث نشأ هذا الحيوان ، إلى غربى أوربا فقد قطن بقلب القارة الآسيوية رعاة هيئوا حياتهم حول هذا الصديق الأليف ، واستخدموه كما استخدم العرب البعير ، فأفادوا من سرعته فى القتال ومن لحمه وجلده ولبنه ، واعتمدوا عليه فى السلم والحرب .

ولجمٍّ حبهم له ابتدعوا الأساطير حوله : فزعم الياقوت أن الحصان هدية إله خيرّ علَّمهم - ضمن ما علمهم - فن تخمير لبنه لصناعة مشروبهم المفضل

(القمّز) ، واعتادوا إذا نفق حصان رفع عظامه ووضعها على منصة تكريماً له ، وإذا مات أحد رجالهم ، دفن حصانه معه فى قبره ، وتفانوا فى أكل لحمه وتقديمه فى المآدب والأعراس على أنه طعام فاخر ولذيذ .

وقد أولع العرب مثلهم بتربية الخيل واقتناء أثمنها واستيلاد سلالات أصيلة منها ، وقالوا عنها العجب العجيب ، أورد منه الدميرى فى كتابه «كتاب الحيوان الكبير» روايات تفخّمها وتبين مكانتها عندهم .

فقد روى – على سبيل المثال – أن معاوية مر بأبى ذر رضى الله عنهما وهو يمرغ فرساً فسلم عليه ثم قال : يا أباذر ، ما هذا الفرس ؟ فقال : هذا فرس لا أراه إلا مستجاب الدعاء ! قال : وهل تدعو الخيل وتجاب ؟ قال : نعم ، ليس من ليلة إلا والفرس يدعو فيها ربه فيقول : رب ، إنك سخرتنى لابن آدم وجعلت رزقى فى يده ، اللهم فاجعلنى أحب إليه من أهله وولده (الدميرى ١ : ١٥٤) ففسر تفسيراً شاعريًّا تفضيل الخيل على الأهل .

كما ذكر الرواية التى مفادها أن أول من ركب الخيل كان إسماعيل عليه السلام ، ولذلك سميت بالعراب ، وكانت قبل ذلك وحشية ، ولذلك أسند إلى النبى ﷺ القول : «اركبوا الخيل فإنها ميراث أبيكم إسماعيل» (الدميرى : ١ : ٤٤٢) .

وروى الترمذى إسناداً ضعيفاً عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه : «جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : «إنى أحب الخيل فهل فى الجنة خيل ؟ فقال ﷺ : «إن دخلت الجنة أتيت بفرس من ياقوتة لها جناحان فتحمل عليها فيطير بك فى الجنة حيث شئت» (الدميرى : ١ : ٤٤٣) .

وفى رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال : «لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخيل قال لريح الجنوب : إنى خالق منا خلقاً أجعله عزة لأوليائى ومذلة

لأعدائى وجمالاً لأهل طاعتى ؛ فقالت الريح : اخلق يارب ، فقبض منها قبضة فخلق منها فرساً ، وقال جل وعلا : خلقتك عربيًّا ، وجعلت الخير معقوداً بنواصيك والغنائم على ظهرك ، وبوأتك سعة من الرزق ، وأيدتك على غيرك من الدواب ، وعطفت عليك صاحبك ، وجعلتك تطير بلا جناح ، فأنت للطلب وأنت للهرب ، وإنى سأجعل على ظهرك رجالاً يسبحونى ويحمدونى ويهللونى ويكبرونى (الدميرى : ١ : ٤٤١) .

أما الأفريقيون فقد اختلفوا فى شأن أكل الخيل ، ولا داعى للإطالة هنا فى ذكر عاداتهم المختلفة واحدة واحدة ، فقد أفرد لها سيمونز [١٧] باباً طويلاً ،

وفى أوربا استحسن لحمها ، ويبدو أن الأوربيين ربطوا بين هذا الحيوان النبيل وبين الإله الوثنى (أودين) ، فنفر المسيحيون منه وحرم لحمه عليهم تدريجا إلى أن أصدر البابا جريجورى الثالث سنة ٧٣٢ أمراً يحرمه نهائيًّا . ومن جراء هذا التحريم امتنعت بعض شعوب آيرلندا عن اعتناق الدين المسيحى مدة طويلة . [١]

ولكن مثل هذه الأوامر وما تبعها لم تمح هذه العادة محواً تامًّا ، وظل الأوربيون يستسيغون هذا الطعام ، ولا سيما فى آيرلندا حيث شملت طقوس التتويج جلوس الملك فى حمام من فوق فرس ذبح لهذه المناسبة ، ثم اشتراكه مع قومه فى أكل لحمه وشرب شىء من مرقه .

ثم مر هذا اللحم بحقبة فتور ازدُرِىَ فى أثنائها ، وعد غير ملائم للموائد المحترمة إلى أن تجدد الاعتماد عليه فى خلال مجاعات القرن الثامن عشر ، وعرفت مزاياه ، واعتاد جراح الحملة الفرنسية فى مصر - بارون لارى - تغذية مرضاه به ، واجتهد بعض المفكرين فى القرن التاسع عشر بإعادة ترويجه . ومن مظاهر حملتهم إقامة مأدبة (حصانية) سنة ١٨٦٥ فى فندق من أفخر فنادق باريس لم يقدم خلالها من الأطباق سوى ما صنع من لحم الخيل المطهو فى أشكال مختلفة ، ثم افتتحت

جزارات خاصة لبيع هذا النوع من اللحم وحظر بيعه فى غيرها ، وأنشئت جمعية لتشجيع أكله ، ولا يزال قوم يعتقدون أنه علاج شافٍ للسل والهزال والأنيميا وما إليها من الأمراض .

واتفق أغلب الفقهاء على السماح بأكل الخيل استناداً إلى حديث شريف فحواه أن الرسول ﷺ رخص فيها يوم خيبر (صحيح البخارى[١٠٦] : ٥ : ١٧٣) ، كما ورد فى الصحيحين :

عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما أنها قالت : «نحرنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ فأكلناها» وفى رواية «ونحن بالمدينة» وفى سند الإمام أحمد «نحرنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ فأكلناها نحن وأهل بيته» (الدميرى : ٢ : ١٦٤) .

وذهب قلة إلى أنها مكروهة إلا أن كراهتها عند مالك تنزيه لا كراهية تحريم ، واستدلوا بما فى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه «أن النبى ﷺ نهى عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير لقوله تعالى : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) (النحل/٨) وقال صاحب الهداية فى الحنفية : الآية خرّجت مخرج الامتنان والأكل من أعلى منافعها ، والحكيم لا يترك الامتنان بأعلى النعم ويمتن بأدناها» (الدميرى : ٢ ، ١٦٤) .

أما فى مصر فإن الخيول لم تعرف إلا بعد عصر الهكسوس ، وربما كانت حداثتها النسبية السبب فى عدم تأليهها ، ومن ثم فى عدم ورود أى حظر عنها ، ولم تؤكل إلا فى عهد المماليك : فقد روى المقريزى[١٠٧] أن الأمير بكتاش كان يذبح لسماطه فى دمياط (يومياً) خمسين رأساً من الغنم وفرساً لابد منه ، غير أن هذه العادات الدخيلة لم ترسخ .

الحمير والبغال :

يثير أكل الحمير والبغال دهشتنا بل ونفورنا ، وبصفة خاصة عند الاطلاع على «ملف» الحمير التاريخى : فى مصر القديمة أشرنا إلى أن الإله حور نجل أوزيريس والقائم بثأره بعد أن انتصر على ست - ألقى به وبرهطه فى نهر النيل فى شكل حمير ، وأن هذه الرواية التى ترمز إلى حدث تاريخى - كانت السبب فى عد الحمير ضمن الكائنات المتممة إلى ست ، وفى نيلها ماناله هذا الإله من مقت المصريين وكراهيتهم .

ولنذكر حواراً مقتطعاً من مؤلف لبلوتارخ [١٠٨] نسب إلى إيزوب هذا الحديث :

«إذا علمت أن صناع المزامير يستبدلون عظام الحمير بعظام الغزال زاعمين أن صوتها أرق وأرخم عجبت من أن يكون للحمار - مع ما هو عليه من الفظظ ومع بعده كل البعد عن عرائس العلوم والفنون - أن يكون عظمه فى هذه الرقة والرخامة» . فأجاب نلوكسينوس : «حقًا إن هذا ما يأخذه سكان بوزيرس [١] علينا نحن سكان نوكراتس [٢] وهو أننا نجعل من عظام الحمير مزامير فى حين أن مجرد سماع الأبواق مقت عندهم لتشابه أصواتها ونهيق الحمير . ألا تعلم أن الحمار مقيت عندهم أبغض المقت بسبب (تيفون) ؟

ولكن القدامى عدّوا لحم الحمير من الطيبات : فقد حرص الإغريق على إضافته إلى (السجق)١٠٩ .

وشغف أثرياء الرومان بأكله فى أفخر الولائم ، وراق كذلك كبار القوم فى

---

(١) بوزيرس : إحدى المدن التى ألقيت فيها أشلاء أوزيريس .

(٢) نوكراتس : مدينة فى شمالى الدلتا أقامت فيها جالية كبيرة من الإغريق .

فارس : فقد ورد فى كتيب باللغة البهلوب [١١٠] يرجع تاريخه إلى القرن السادس أو السابع أن كسرى عند امتحانه أحد أولاد الأشراف ، وكان بلغه ما اتسم به هذا الشاب من رفعة الذوق وسعة المعرفة - سأله عن أفضل المأكولات ، فأجاب : إن ألذ هلام (بالوظة) هو الهلام المجعول من لحم حمار مبتل ومنقوع فى لبن حامض قبل إدماجه فى الهلام .

ومال إليه الإفرنج فى القرون الوسطى : ومما روى عن الملك داجوبير الثانى فى القرن السابع الميلادى أنه اعتذر يوماً عن عدم أكل جحش مشوى محشو بالعصافير وسمك الثعبان ، لأنه كان يعد نفسه فى اليوم نفسه لتخليص بعض المحكوم عليهم لعجزهم عن سداد ديونهم معتبراً أن هذا الطعام المترف لايتفق مع التقوى المناسبة لهذا الواجب الإنسانى ! [١١١]

وورد فى (قاموس لاروس فى حسن الأكل) [١١٢] ، وهو دستور هواة الطعام الفاخر والطهو المترهف أن الفرنسيين - وحسن تذوقهم معروف - كانوا يربون الحمير ويسمنونها لموائدهم ، وأن سكان جزيرة مالطا عندما حاصرهم الأسطول الإنجليزى اغتذوا مجبورين بالكلاب والقطط والفئران والحمير وغيرها من الحيوانات ، ثم إنهم نتيجة لهذا أحبوا لحم الحمير وفضلوه على لحم الأبقار والعجول ، ثم يضيف هذا القاموس أن ولهلم ملك ألمانيا قدم لنابليون الثالث ليلة انتصاره عليه فى سيدان مخ حمار مطهوًّا على طريقة سماها « الطريقة الدبلوماسية » ! والنكتة فى هذه الرواية هى أن اجتماع العاهلين كان اجتماعاً دبلوماسياً أملى ولهلم فى خلاله شروط الصلح لنابليون المهزوم . وتنتهى مناقشة لحم الحمير فى هذا المصنف الحجة إلى أن لحم الحمير التى لم يتعد سنها سنتين غاية فى الرقة ، وأنها تضاهى لذتها لذة لحم العجول !

ومن المعروف أن النكهة الخاصة التى تحبب السجق الإيطالى والهنغارى للهواة

إنما تأتيه من لحم الحمير والبغال الذى يضاف إليه .

أما الآن فإن حكم لحم الحمير هو تحريمه عند أكثر أهل العلم ، والرخصة فيه إنما رويت عن ابن عباس رواها عنه أبو داود فى سننه (الدميرى -جزءا - ص٣٥٨) . وهناك حديث متفق عليه « أن النبى ﷺ نهى عن لحوم الحمر لأهلية وأذن فى لحوم الخيل » . وقد ورد حديث رواه غالب بن أبجر قال : « أصابتنا سنة فشكونا ذلك لرسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله لم يكن عندى ما أطعم أهلى إلا سمان حمر ، وإنك حرمت لحوم الحمر الأهلية » فقال : أطعم أهلك من سمين حمرك فإنما حرمتها من أجل جوال القرية » . فلو صح حديث غالب لحمل على الأكل منها حال الاضطرار وهى فى رأى الدميرى قضية عين لاعموم لها ولا حجة فيها (الدميرى : ١ : ٣٥٨) .

أما الحمار الوحشى وكان يسمى الفراء فإن أكل لحمه يحل بالإجماع (الدميرى : ١ : ٣٦١ صحيح البخارى ٧ : ٩٦ و ٥ : ١٦٧ و ١٧٣) وكان العرب مولعين بصيده .

وحكم البغال يختلف على حسب مولدها : فإن المتولد منها بين الحمار الأهلى والفرس يحرم أكله ، لأنه متولد بين مايحل وما يحرم ، فيغلب جانب التحريم ، فإن تولد بين حمار وحشى وفرس حل ، وأما الحديث الذى روى بإسناد صحيح عن أبى واقد « أن قوماً مات لهم بغل ولم يكن لهم شىء غيره فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فرخص لهم فيه » ، فهذا محمول على أنهم كانوا مضطرين يحل لهم أكل الميتة (الدميرى : ١ : ٢٠٣) .

القطط :

تنفر جل الشعوب من أكل لحم هذا الحيوان الأليف الذى يميل إليه

الكبار والصغار على السواء ، وقيل الفلاسفة والأدباء ، وقل أكله إلا أن يغش به لحم الأرانب ، الأمر الذى جعل البعض يمقت الأرانب لشبهها بالقطط .

وكان المصريون يقدسون القطط ، ويحفظونها بعد الموت ، ويصنعون لها التماثيل ، وقد عثر على قبورها بسقارة وبنى حسن ، ونالت أكثر ما نالته من الحظوة فى أيام الملوك الذين اتخذوا من كعبتها « بوبسطة » عاصمة لملكهم ، ثم خلط الناس بين القطط ونظائرها ، فعدوا الهرة (بسطت) الصورة الضاحكة للبؤة الفتاكة (سخمت) ، كما تخيلوا (رع) فى هيئة قط يصرع الحية (أبو فيس) وجعلوا للأرواح التى تقيهم شر الحيات فى العالم الآخر رءوس قطط . وقد روى ديودور الصقلى أن عقاب من قتل قطاً كان الإعدام .

وقد حرم أكل الهر وإن كان حيواناً طاهراً : فقد ورد فى الحديث الشريف « أن النبى ﷺ دعى إلى دار قوم فأجاب ، وإلى دار آخرين فلم يجب ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : إن فى دار فلان كلباً ، فقيل له : وإن فى دار فلان هرة ، فقال ﷺ : الهرة ليست بنجسة وإنما هى من الطوافين عليكم والطوافات » والطوافون الخدم والطوافات الخادمات ، فجعل القطط بمنزلة المماليك وكأنها من أهل البيت (الدميرى : ٢ : ٤٠٠ ، ٤٠١) .

الكلاب :

إنه من المسلم به أن الكلب كان أول حيوان دجنه الإنسان وإن كان القول بأنه إنما دجن ليؤكل [١١٣] قولاً يحتمل الشك . ويبدو أن (العهد) الذى وقع بين الإنسان وهذا الحيوان الأليف تم باتفاق متبادل بين الطرفين ! ورد البعض هذا التآلف إلى أن أرهاط الكلاب المتوحشة اعتادت تتبع القناصين متوقعة غذاء وافراً من الأحشاء والبقايا ، ثم سبقتهم لاستشعار الفرائس بفضل حدة شمها والإرشاد

إليها وإتمام الحصار حولها ، وقوّت هذه الرابطة قدرة الكلاب على معرفة أمزجة أصحابها وتفهم بعض الألفاظ والاستجابة إليها .

ولكن هذه العلاقة ظلت مزدوجة ومتناقضة طوال التاريخ :

فقد آله قدماء المصريين ثلاثة كلاب :

أولها : (وب - وأوت) ومعنى اسمه فاتح الطريق ، وكان يعبد فى أسيوط ، وكانت شاراته تتقدم مواكب الملوك والزوارق المقدسة

ثانيها : (خنتى - أمنتو) : أى الأول فى الغرب : أى الأول فى عالم الموتى ، وكان إله أبيدوس (العرابة المدفونة) حيث دفن ملوك الأسرة الأولى .

ثالثها وأشهرها : أنوبس ، وزعم أنه ابن أوزيريس وإيزيس ، وفى رواية أخرى ابن أوزيريس ونفتيس عندما ظنها إيزيس . وحظى هذا الإله بألالقاب عدة منها سيد البقر الحلوب ، وإله المحنطين ، وقاضى الآخرة ! وقد صور فى شكل ابن آوى أو إنسان ذى رأس ابن آوى . وكان الكهنة المحنطون يرتدون قناعاً فى شكل رأس هذا الحيوان فى خلال عمليات التحنيط (شكل ١٣) . وراجت عبادته فى العالم القديم عندما انتشرت الديانة الأوزيرية وما صاحبها من العقائد الخاصة بالبعث وبالآخرة فى العالم الرومانى والهيلينى المتشبع بالحضارة اليونانية .

وفى روما روى بلينيوس [١١٤] أن الكلاب كانت تصلب على حين كانت الكلاب الرضيعة تعد طاهرة وجديرة بتقديمها قرابين للآلهة وتوكل تمجيداً لإلهة من إلهات الولادة اسمها (جفيتا منا) . غير أنه أضاف فى مواضع أخرى (٦ : ٣٢) أنه حرم دخولها جزيرة سيجاروس وأن إقليماً من أقاليم السودان كان يحكمه كلب بصدر أوامره بالإشارة ! (٦ : ٣٥) .

وفى الشرق الأوسط - على حسب قول سيمونز [١١٥] - عدّ الزرادشتيون الكلب أقدس الحيوانات ، ونهوا عن قتله أو سوء معاملته .

(شكل ١٣) أعلى الصورة كاهن يرتدى رأس أنوبيس فى أثناء التخنيط أسفل الصورة الإله أنوبيس

وزعمت شعوب من أفريقيا ومدغشقر وجنوب شرق آسيا أنهم اكتسبوا الحضارة من الكلاب وأنهم من سلالة كلاب جعلوها حيواناتهم الطوطمية .

ولذا فإن النفور من أكل الكلاب بعيد كل البعد عن العموم وإن كان آخذاً فى الانتشار بفضل ضغط الحضارات التى تنهى عنه : إما حبًّا لهذا الحيوان الأليف ، وإما تنجيساً له ، وإما تأليهاً له ، وقد تكون نشأة هذه المواقف المختلفة تفاعلات متباينة لاعتبار واحد .

ينتشر أكل الكلاب الآن فى شرق آسيا من سيبريا شمالاً إلى أسام جنوباً وجزر هاواى شرقاً . واستولد الصينيون نوعاً منها ، وخصصوه للمائدة ، وبلغ ميلهم إليه مبلغ تسميتهم إياه فى فورموزا (اللحم العطر !) وينتشر أيضاً فى غربى أفريقيا وفى حوض الكونجو حيث كانت الكلاب تستبدل بالعبيد إلى عهد قريب . وكذلك فى المكسيك حيث انحصرت هذه العادة بعد أن كانت تعم القارة الأمريكية قبل الفتح الإسبانى .

أما فى مصر القديمة فإننا لا نجد ذكراً لأكل الكلاب إلا فى واقعة واحدة رواها بلوتارخ ، مفادها أن أهل مدينة أكسيرنخس الذين ألهوا سمكة (أبو بوير) ذبحوا كلباً وأكلوه انتقاماً من أهل مدينة كينوبولس عباد الكلب الذين كانوا يأكلون هذا النوع من السمك ، وأن هذه الواقعة أدت إلى الحرب بين المدينتين .

هذا ، وإن كان حافز أكل الكلاب فى هذه الرواية الانتقام فإنما يدل على عدم تحريم أكل الكلاب فى أكسيرنخس [١١٦] .

الثعابين :

تأكل شعوب عدة الثعابين ، رواه الرحالة العرب أمثال الإدريسى والعمرى [١١٧] .

يشير الدميرى (١ : ٤٠١) إلى عداوة الحية للإنسان منذ آدم وحواء والحية وإبليس ، وإلى أن قتل الحيات واجب .

وقد حرم أكل الثعابين لضررها ، وحرم أيضاً الترياق المعمول من لحومها إلا اضطراراً بحيث يجوز أكل الميتة . أما السمك المكون فى شكلها فحلال .

الحشرات :

إنى أدرك تمام الإدراك عنف المشاعر التى ستثيرها مجرد فكرة أكل الحشرات ، وصعوبة مقاومة الآراء المستحكمة فى أعماق أذهاننا ، وإنى أعترف بأنى - بحكم نشأتى - أشارك القراء فى نفورهم عن هذا اللون من الطعام ، وأقر بأنى إذ أدافع عن رأى مخالف لميولى الشخصية إنما أدافع عنه بواعزٍ من المنطق لا بدافع الميل .

لقد استساغت شعوب كثيرة أكل الشراعم والحشرات : كان أثرياء الرومان يسمنون الدود فى مزيج من دقيق الحنطة والنبيذ ، ثم يأكلونه مشوياً ، وكان الإغريق يقدمونه لضيوفهم المكرمين ، وروى آيليان أن ملكاً من ملوك الهند اعتاد تقديم شرانق مشوية للحفاوة بضيوفه ، ومن المعروف أن الجاويين مشغوفون بنوع من الخنافس[1] وأن الصينيين ولعون بأكل براعيم دودة القز ، وأن أهل أواسط أفريقيا يطهون أطعمتهم بزيت النمل ، ولا عجب فما العسل إلا لعاب النحل .

ولا ينفر أناس من أكل دود الجبن زاعمين أنه من جوهره .

وقد جمع بودنهايمر[١١٨] معلومات مفيدة عن أكلة الحشرات وأفادت مثل هذه الدراسات فى تدريب جنود (الكوماندو) على أكل مايتسنى لهم من الطعام فى الأدغال ، ومنه الثعابين والديدان .

وزعم هايز[١١٩] - قياساً بالشعوب القديمة - أن قدماء المصريين تغذوا

---

(١) Holt 118 -Melolontha hypoleuca. Cockcgafer.

بالشرانق والديدان ، ولكنه لم يستند إلى أى دليل من الواقع .

ولذا يتحتم التفرقة بين الحشرات النقية والحشرات القذرة لأن تركيب أبدان الحشرات قاطبة لايخالف تركيب أبداننا .

ويتساءل هولت[١٢٠] : إذا كان الفيصل بين مايؤكل وما لايؤكل هو نقاوة الطعام وعدم أكل الميتة والقاذورات - فإن بعض الشرانق والحشرات نباتية تماماً ، فمن أين تأتى قذارة دود الجبن وهو منذ لحظة الفقس يتغذى بالجبن حتى أصبح جزءاً منه ؟ ومن أين قذارة دود القز وهو لا يقرض سوى ورق التوت النضر ؟ وأين قذارة براعم القطن والكرنب وكل أنواع الدود التى تعتمد على النبات فى غذائها ؟ هل تقارن هذه الدبيبات بالدجاج الذى يبحث عن طعامه فى القاذورات حتى فى الروث ، أو بالسمك الثعبان والسرطان (أبو جلمبو) و (الأستاكوزا) التى تكسح قمامة البحار ؟

أما إذا كان الفيصل هو الشكل فكيف نستقبحها على حين نتلهف على المحار والكرشة على بشاعة شكلها ؟ .

ولا شك فى أن أكثر الحشرات رواجاً بين القدامى كان الجراد ، فقد روى سترابو[١٢١] أن بعض الآسيويين كان يقذف بالأخشاب المحترقة فى الحفر التى يلجأ إليها الجراد ويصطاده عندما يطير وقد أفقده الدخان البصر .

وذكر بلينيوس شعوباً كثيرة استساغته ، وأباحت التوراة (اللاويين ١١ : ٢٢) أنواعاً منه وحرمت أنواعاً أخرى . فدفعت صعوبة التمييز بينهما علماء اليهود إلى تحريم أكلها خوفاً من الخطأ[١٢٢] .

واشتهر العرب إلى اليوم بميلهم إليه ، وورد فى إنجيل متى أن سيدنا إدريس عليه السلام (القديس يوحنا المعمدان) أمضى أربعين يوماً فى الصحراء لا يأكل إلا الجراد والعسل . وفى سنة الرسول ﷺ ، قال عبد الله بن أبى أوفى . غزونا مع

رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد « رواه أبو داود والبخارى والحافظ أبو نعيم وفيه : ويأكله رسول الله ﷺ معنا » وروى ابن ماجه عن أنس قال : « كان أزواج النبى ﷺ يتهادين الجراد فى الأطباق » ومن الروايات الأخرى أن مريم بنت عمران عليها السلام سألت ربها أن يطعمها لحماً لا دم له فأطعمها الجراد ، والدليل على عموم حله قوله ﷺ : « أحلت لنا ميتتان ودمان : الكبد والطحال والسمك والجراد » .

أما الحشرات الأخرى فقد حرم أكلها أغلب العلماء ، غير أن مالكاً قال : إنها حلال لقوله تعالى : (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) [1] (الآية) ، واحتج الشافعى والأصحاب بقوله تعالى (ويحرم عليهم الخبائث) [2] وهو ماتستخبثه العرب ، وقالوا معنى الآية : قل لا أجد – (الآية) هو : مما كنتم تأكلونه وتستطيعونه . وقال الغزالى فى الوسيط : لا يؤكل من الحشرات إلا الضب (الدميرى : ١ : ٣٣٣ و ٣٣٤) .

أما الدود فيحرم أكله بجميع أنواعه ، لأنه مستخبث إلا ماتولد من مأكول ، وفيه ثلاثة أوجه : أصحها أكله معه لا منفرداً ، والثانى أنه يجب تمييزه ولا يؤكل أصلاً ، والثالث أنه يؤكل معه ومنفرداً (الدميرى : ١ : ٤٨٨) .

وإلى هذا فقد استخدم الطب أنواعاً من الديدان للعلاج : نرى قدماء المصريين يصفون أحشاء حشرات مختلفة لتقوية البصر (إبرز : ٣٣٩ و ٣٤٢ و ٣٤٣) ، والخنافس بعد نزع رءوسها وأجنحتها لمقاومة السحر (إبرز : ٧٣٣) ودودة سميت (أنارت) لإسقاط الشعر (إبرز : ٤٧٤) وذنب العقرب لعلاج أمراض الأذن (بردية برلين : ٧١) ، ولا شك فى أن أغلب هذه الوصفات مبنية على اعتبارات سحرية وليست طبية .

---

(١) الأنعام / ١٤٥ . (٢) الأعراف / ١٥٧ .

لم يختلف الإغريق أو العرب فى استخدامهم أجزاء الحشرات . ولنذكر بعض أمثلة مستخرجة من كتاب الحيوان الكبير للدميرى :

« إذا أخذ دود القز وخلط بالزيت ولطخ به بدن إنسان نفع من نهش الهوام وذوات السموم .

ودودة القز إذا أخرجت منه وأكلها الدجاج حصل له سمن كثير .

ودود الزبل الأصفر الذى يخلق منه إذا طبخ فى زيت عتيق حتى ينضج ، ويدهن بذلك الزيت داء الثعلب فإنه يبرئه » (الجزء الأول : ٤٨٨) .

« إذا وضعت العقرب فى إناء فخار وسد رأسه ثم وضع فى تنور إلى أن تصير رماداً وسقى من ذلك من به الحصى نفعه وفتتها (الجزء الثانى : ٦٤) .

إذا يبس العلق فى الظل وسحق مع نشادر وطلى به موضع داء الثعلب نبت الشعر عليه (الجزء الثانى : ٧٤) .

« الدراريج تخلط فى الأدوية الموافقة للأورام كالسرطان والقوابى الرديئة قال الرازى : الاكتحال منها ينفع الطرفة فى العين ، وإذا طلى بها مسحوقه قتلت القمل ، وإذا طبخت فى زيت أبرأ ذلك الزيت داء الثعلب (الجزء الأول : ٥١١) .

« قال ابن سينا : إذا أخذ منه اثنتا عشرة جرادة ونزعت رءوسها وأطرافها وجعل منها قليل من الآس اليابس وشربه صاحب الاستسقاء نفعه » (الجزء الأول : ٢٧٠) .

« الخنفساء : الاكتحال بما فيها من الرطوبة يحد البصر ويزيل البياض ، وإن أخذت خنفساء وطبخت بعصير السمسم وقطر فى الأذن منه فإنه نافع من جميع أوجاع الأذن (الجزء الأول : ٤٧٧) [١٢٣] .

البيض .

البيض من الأطعمة التى نستغرب تحريمها ، ولكن هذا الطعام المحبوب أملى اعتقادات ومخاوف لاتزال تلون عادات شعوب كثيرة لاحتوائه عنصراً حياً كامناً .

وقد ورد نص يؤكد تحريم البيض فى أثناء مآدب العرس فى مدينة نوكراتس المخصصة لإقامة الإغريق فى مصر القديمة دون تحديد منبع هذا التحريم ، أكان إغريقياً أصلاً أم كان مصرياً وانتقل إلى الإغريق ؟

وفى جنوبى السودان يجتنب ذكور (النوير) اليوم البيض لاعتقادهم أنه طعام لايناسب سوى النساء والأطفال ! ولايزال مثل هذا التحريم قائماً فى بعض قرى اليونان النائية ويعتقد سيمونز أنه من رواسب أسرار الديانة الإلوزية .

وعلى العموم يمكن تقسيم أنماط اجتناب البيض على الوجه الآتى :

١ - التحريم تحريماً باتاً على الجنسين .

٢ - السماح بالبيض ومنع الدجاج .

٣ - تحريم البيض الملقح .

٤ - تحريم البيض غير الملقح .

٥ - السماح به للنساء والشيوخ فقط .

٦ - التحريم على النساء فى سنى الإنجاب خوفاً من العقم .

٧ - التحريم على الصبيات قبل نهائهن طقوس البلوغ .

٨ - التحريم على الصبيان خوفاً من رسوبهم فى امتحانات البلوغ .

٩ - اجتناب الرجال للبيض خوفاً من التخنث .

١٠ - منع الحوامل والمراضع من أكله .

ويلاحظ فى كل هذه التقاليد المختلفة وجود خيط واحد موصل بينها هو فرض

صلة بين البيض والقوى المولدة .

أما فى مصر فإنه يسود الاعتقاد بعدم ملاءمة البيض للأمراض المنسوبة إلى « برد » . والبرد عند العوام يشمل الزكام والإنفلونزا ، كما يشمل الاضطرابات المعوية والآلام الروماتزمية وجمهرة من العلل غير محددة .

ويعلق الأقباط وسط الكنائس بيضة نعام ، ولا ندرى معنى هذا التقليد على التحقيق ! وإن كنا سمعنا له تفسيرين قوامهما أن النعام لايثنى نظره عن بيضه طوال مدة الحضانة ، فالمسيح يرعى كنيسته بالعناية نفسها ، والمؤمن لايثنى انتباهه عن العبادة لحظة واحدة .

اللبن :

اللبن فى مصر القديمة :

كان الأطفال فى مصر القديمة يرضعون لثلاث سنوات ، وكان يلجأ عند الضرورة إلى مراضع محترفات ، وهؤلاء كانت مهنتهن - على الأقل فى عصر البطالمة - خاضعة لقوانين دقيقة . وقد ذكرت بردية إبرز طريقة التمييز بين اللبن الصالح وغيره .

لم يرد أى نص يشير إلى استخدام الحيوانات للرضاعة مباشرة ، وإن كانت الأدلة توحى بهذا : فقد ورد بين نصوص الأهرام على لسان إلهة من إناث الرخم الحديث التالى الموجه إلى الملك المتوفى : « يابنى أيها الملك ، أمسك بثدىى واحتلبه . لِمَ تنقطع عن الحضور إلىّ فى كل يوم من أيامنا هذه ؟ ويضيف النص : « لقد حضر إلى أميه الرخمين الأنثيين ، ذاتى الشعر للسدول والأثداء المتدلية . . فجذبتا أثداءهما نحوه ولن يفطماه أبداً [١٢٦] .

ومما يدعو إلى التعجب أن فرويد [١٢٧] وصف أيضاً الرخم بأنه من رموز

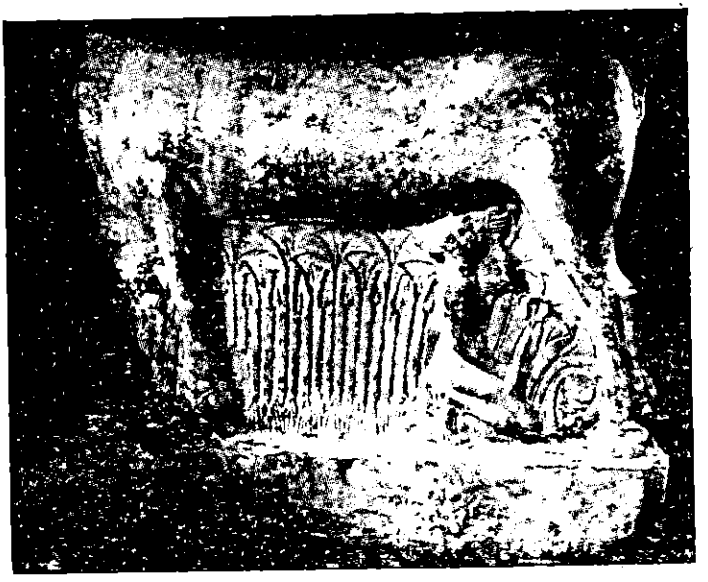

(شكل ١٤) طفل يرضع من ثدى بقرة

الأمومة وهذا بعد تدوين ذلك النص بأربعين قرناً أو يزيد .

ومن البديهى أن الرخم ليس من الثدييات . وأن الغرض من هذا النص الذى ربما كان مصحوباً بحركات سحرية كان تأكيد انحدار فرعون من سلالة إلهية وإعادة الحياة إليه بغذاء إلهى .

وهذا القصد واضح أيضاً فى نصوص دينية أخرى ، منها : باب من (كتاب الموتى) نقشت له نحوت وتماثيل جميلة تمثل الملك المتوفى – ولونه أسود لون الموت – متجهاً غرباً : أى نحو مغرب الشمس وبلاد الأموات ، حيث تقابله الإلهة (حات – حور) ، إلهة المستنقعات الغربية ، وتعرض عليه حليبها ، فيقبله ، وما إن يشربه حتى يستحيل لونه إلى أحمر : أى لون الحياة ، الأمر الذى يرمز إلى دخوله الحياة الأبدية .

ومع ذلك فإن بعض التماثيل تمثل أفراداً لا ينتمون إلى الأسر الملكية وهم يرضعون بصحبة العجل الأمر الذى قد يرجح أن الحيوانات كانت تستخدم كالمراضع (شكل ١٤) .

وفى غير هذه الحالات كان الحليب يقدم للأطفال بملاعق : أو أوان خاصة نذكر منها ثلاثة أنواع :

الأول : أوعية على شكل سيدة على حجرها طفل هزيل ، قيل : إنهما يمثلان الإلهة إيزيس والطفل الذى أنجبته من زوجها أوزيريس بعد وفاته على حسب رواية كانت تمثل على جدران الغرف السرية الخاصة بالطقوس الأوزيرية بالمعابد . حيث نرى الإلهة على شكل طائر يرفرف فوق عضو أوزيريس وهو ملقى على ظهره ، ويعتقد أن هذه الأوعية كانت تستخدم لحفظ لبن الأمهات اللائى ينجبن أطفالاً ذكوراً ، وهو كان يعد دواءً ممتازاً .

والنوع الثانى عبارة عن تماثيل صغيرة مجوفة تمثل أنثى فرس البحر ، الإلهة

(تاورت) إلهة الولادة والطفولة . والثديان المنقوشان على كل منها مثقوبان بحيث يسمحان بامتصاص اللبن الذى بداخله ، وكأنها ثديان حقيقيان لأم ترضع وليدها . (شكل ١٥) .

أما النوع الثالث من الأوعية فيمثل قروناً مجوفة قيل : إنها استعملت للحقن الشرجية ، وإن كان هذا الزعم يدعو إلى الشك ، إذ إن ضعف اندفاع السائل منها يجعل تصور انتقاله إلى الأمعاء مستحيلاً . ونحن نرجح أنها كانت تستخدم فى التغذية ، ونستند فى ذلك إلى استعمال القرون لتغذية صغار الحيوانات والرضع طوال العصور الوسطى بأوربا .

ولعل القارئ أدرك مما سبق معنى شرب اللبن الرمزى وهو تأكيد التسلسل من الأم واكتساب شخصيتها والدافع إليه وهو وضع الملوك بين الآلهة لاحتسائهم لبن الإلهات ، وهو معنى تلك الرسوم والنحوت التى تعج بها المعابد المصرية والتى تمثل الإلهات وهن يرضعن الأمراء وورثاء العرش .

وكان الحاجز بين الإنسان والحيوان غير محدد فى الخيال البدائى : روت أساطير الإغريق أن زوس كبير الآلهة كان يتحول بسهولة فائقة تارة إلى ثور وطوراً إلى بجعة أو إلى حيوان ثالث ليقترب من النساء اللائى كان يرغبهن ، وأن ديونيسوس تحول إلى سبع ، وأن بحارته تحولوا إلى درافيل وأن الإله أبولو حول أذنى ملك إلى أذنى حمار ! وهذه الروايات وغيرها سجلها أوفيد فى الأجزاء الخمسة عشر من مؤلفه المشهور « التحولات » .

وتحدثنا روايات أخرى عن حيوانات أرضعت أمراء وملوك : كالفرس التى غذت بيلياس ، والنعجة التى غذت أسقلابيوس إله الطب ، والدبة التى غذت أطلانطا ، والكلبة التى غذت قيروش ، ولعل أشهر هذه الروايات رواية الذئبة التى

(شكل ١٥) وعاء من الحزف فى شكل فرس البحر (الإلهة تاورت راعية الولادة والطفولة) كان يملأ بالحليب ويمتص اللبن من الحلمتين المفتوحتين

أرضعت رومس وروملوس مؤسسى روما ، ولا تزال صورة الذئبة ورضيعيها رمزاً ورنكا لهذه العاصمة .

لبن الأم :

تقول أمثالنا الشعبية « أحلّ من لبن الأم » وعن الرجل الشهم الشريف الأصيل إنه « شارب من لبن أمه » .

وأفضل لبن عند قدامى المصريين كان لبن الأمهات اللائى أنجبن وليداً ذكراً ، وكانت تنسب له صفات علاجية ممتازة ، وقد اعتاد أبقراط وديوسقوريد وأطباء الأقباط وصفه ، وفسّر أرسطو تفصيله فقال : إن السيدات الحاملات لأجنة من الذكور يتمتعن بقوى تفوق اللائى يحملن إناثاً ، ولذا فإنه من الطبيعى أن يكون لبنهن أفضل (١٢٨) .

وللبن الأم شأن كبير عند العرب ، لما يتركه من أثر فى طبيعة الولد ، ولذلك كانوا يرون أن تكون الأم مرضعة الولد ، إلا إذا تعذر ذلك لسبب ، فترضعه مرضعة قريبة من أهل المولود أو من المرضعات السليمات من المرض ، ومن ذوات العرق الطيب . لأن اللبن يؤثر فى شازيه .

واهتم العرب باختيار المرضعات ، لما يكون للبان الرضاع من أثر فى الرضيع ، ولما يكون للمرضعة ولبيئتها من أثر فيه ، كما اهتموا باختيار من يتأبط المولود ويحمله لتسليته وتلهيته ، لما يتركه ذلك من أثر فى تربيته وخلقه . وفى حديث عمرو بن العاص : ماتأبطنى الإماء ولا حملتنى البغايا. فى غبرات المآلى : أراد أنه لم تتول الإماء تربيته . وغبرات المآلى : بقايا حرق الحيض .

وإذا أرادوا مدح إنسان والثناء عليه ذكروا مرضعته وصفاء لبنها الذى رضعه ، فقالوا : « نعمت المرضعة » ، و « نعمت المرضعة مرضعته » . وإذا أرادوا

ذم إنسان قالوا : « بئست المرضعة مرضعته » كناية عن أنها هى التى أرضعته ، فخرج رضيعها على شاكلتها . وفى الحديث حين ذكر الإمارة ، فقال : « نعمت المرضعة وبئست الفاطمة » : ضرب المرضعة مثلاً للإمارة وما يوصله إلى صاحبها من الأحلاب ، يعنى المنافع ، والفاطمة مثلاً للموت الذى يهدم عليه لذاته ويقطع منافعها .

وتعد الرضاعة بمنزلة الأخوة بين المتراضعين ، ويفتخر ويتعزز الواحد منهم بالآخر وخاصة إذا كان من السادات والأشراف . والعرب تقول : « هذا رضيعك ، أى أخوك فى الرضاعة ، وتقول : « استرضع فى بنى فلان » ويصير كأنه واحد من القوم الذين استرضع فيهم . وتكون المراضع بمنزلة الأم للرضيع ، حتى إنه حرم زواج الإخوة من الرضعة :

(حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) (النساء ٢٣) .

اجتناب اللبن :

ومع مظاهر التقدير للبن التى أدت إلى ابتكار بعض العبارات مثل « عسل على لبن » – أن البعض يتجنبه أو يعد شربه معيباً . ومن هؤلاء بعض الهنود المسلمين[١٢٩] الذين اصطبغوا بطبائع البرهميين الذين يحيطون بهم ، وبعض قبائل آسيا وأفريقيا . وقد تكون العلة فى هذا النفور نقصاً خلقياً فى خميرة (لكتاز) المعوية ، وخاصتها هضم سكر اللبن (لكتوز) وتحويله إلى سكريات قابلة للامتصاص ، حيث إن هذا النقص منتشر فى الشرق وفى أفريقيا ويندر فى الغرب .

وفى غانا تجتنب المرضعات الأطعمة المحرمة على الرجال خوفاً من تحولها إلى

ألبانهن ، ومن ثم إرضاع أطفالهن الذكور هذه المحرمات ، ولربما نشأت هذه العقيدة عن ملاحظة تأثر اللبن ببعض الأطعمة كالثوم والبصل وبعض العقاقير كالمليّنات .

أما فى الشرق الأوسط فلا يلاحظ شيء من هذا ، اللهم إلا فى ثلاثة ظروف محدودة :

١ - عدم خلط اللبن بالسمك ، وقد سبق ذكره .

٢ - اجتناب الأقباط كل المواد الحيوانية فى خلال أيام صيامهم العديدة .

٣ - عدم أكل اليهود اللحم واللبن فى أكلةٍ واحدة . ووصل التزمت عند بعض اليهود إلى عدم تناول أية كمية من اللبن قبل مضى ساعتين من تناول اللحم .

ومن الغريب أن نجد مثل هذه العادة بين (المازاى) القاطنين أعالى النيل الذين يتغذون بلبن ودم أبقارهم ، ولا يتناولون شيئاً من اللحم إلا استعداداً للقتال ! وهم فى هذه الحال يلجئون إلى أعنف المسهلات للتخلص من أدنى بقايا اللبن فى أمعائهم قبل تناول اللحم .

وليس ثمة من شك فى أن هذه التحريمات لا تمت إلى أى اعتبارات صحية بصلة .

المحرمات غير الحيوانية :

ومما يدعو إلى التأمل أن الحظر الدينى لم يتناول فى شتى الأديان سوى المواد الحيوانية وهى التى فى عرف القدامى كانت حاملة لأرواح : كالبيض والحليب ولحوم بعض الحيوانات ، باستثناء الديانة المصرية التى حرمت على الكهنة البصل والفول والملح :

يروى مؤرخو الإغريق ورحالتهم [١٣٠] أن البصل حرم : لأن الروائح المتصاعدة ممن

يأكلونه تنجس المعابد ، وأن الفول - وقد حظره الفيثاغوريون - يحدث عفونة تماثل عفونة الموتى ، الأمر الذى حدا بهم إلى الزعم بأنه يحوى أرواح الموتى !

والنباتان اللذان قيل عنهما : إنهما حرما على قدماء المصريين - هما الفول والبصل :

أما عن الفول فقد حرم (فيثاغورس) أكله على أتباعه ، وهذا لإيمانه بأن الفول إنما ينتج عن المواد المتعفنة التى يخلق منها الإنسان ، وقد قال بعض الرواه : إنه استمد هذه العقيدة من الكهنة المصريين فى خلال تتلمذه عليهم فى مصر ، والأرجح أنه استنبطها من إيمانه فى تقمص الأرواح ، أما بلينى [١٣١] فإنه رد هذا التحريم إلى سببين وهذا فى نص واحد ، إذ قال : إن الفول يورث الأرق ثم قال : إن أرواح الأموات فى الفول ، وهو قول أخذه - على الأغلب - عن فيثاغورس . أما ديودور الصقلى فقد ذهب إلى أن السبب هو وجوب تدريب الإنسان على إنكار الذات حتى مما كان مفيداً . [١٣٢] .

وقد كرر هيرودوت ذكر كره الكهنة للفول ، قال : ولا يبذر المصريون الفول فى بلادهم مطلقاً ولا يذوقون ما قد ينبت منه فجًّا أو مطبوخاً ، أما الكهنة فلا يطيقون حتى رؤيته ، ويعتقدون أنه بقل «نجس» : (٢ : ٣٧) ولا يفوتنا مافى هذا القول من المبالغة .

ويرى الدكتور بدوى أن التحريم يكون قد اقتصر على الكهنة لإثارته بعض المظاهر الكريهة فى أثناء العبادة . أما العالم الفرنسى لورى [١٣٣] فإنه ذهب إلى أن اللفظة التى ترجمها الإغريق (فول) كانت - فى الحقيقة - تدل على ثمار السوسن الوردى الذى قدسه المصريون .

ويقوّى شكّنا فى صحة تعليل التحريم بدوافع صحية أن نصًّا واحداً من النصوص الخاصة بالفول لم يعرض للأنيميا القتالة التى تصيب بعض الأطفال

عقب تناول الفول مباشرة ، وفى صورة تجعل العلاقة بين السبب والمسبب أقرب للعين وأوضح للملاحظة من علاقة الخنزير بالتريكينا ، ولكن الكتّاب اتجهوا إلى تعليل التحريم بأحد سببين ، هما : إنتاج الروائح الكريهة ، وإيواء أرواح الموتى ! وقد يكون الربط بين نتانة الروائح وتعفن الجثث هو الوصلة بينهما .

ونشاهد فيما قيل عن البصل والثوم لاختلاف الذى واجهناه نفسه فى شأن الفول : فإن النصوص تشير إلى أن البصل كان غذاء مفضلاً ، وسجلت التوراة تحسر اليهود فى سيناء على البصل والكراث الذى كانوا يأكلونه فى مصر (عدد : ٥ : ١١) ، كما عيّر بليثيوس [١٢٨] المصريين اعتيادهم القسم بالثوم والبصل (كما نقسم نحن اليوم بالعيش والملح) ، وروى هيرودوت (٢ : ١٢٥) أن بنائى الهرم كانوا يتناولون منه كميات كبيرة .

وعلى العكس : قال جوفنال[١٣٤] « لايعبد أحد منهم (ديانا) ، ولكنهم لا يضعون فى أفواههم البصل أو الكراث لأن هذا فى نظرهم غير ملائم » .

وجمع بعضهم بين البصل وبين ست على النحو الذى جمعوا عليه بين ست والخنزير : « إن الرواية التى فحواها أن (دكتيس) رضيع إيزيس غرق فى النهر إذ بسط يده للإمساك برزمة من البصل لا تصدق ، ولكن الكهنة يتجنبون البصل لأنه - دون غيره - يزدهر عند أمحاق القمر[١٣٥] [١] .

وقد يكون السبب الحقيقى فى اجتناب الكهنة البصل خشية تصاعد الروائح الكريهة فى المعبد .

الملح :

من المأكولات الأخرى التى نستغرب ضمها إلى قائمة المحظورات . والتى تعزز

---

(١) انظر الباب الرابع فى الخنزير .

الطابع الدينى للتحريم – من هذه المأكولات الملح الذى يبدو أنه حرم على الكهنة فى مصر وعلى بعض الفئات الدينية فى اليونان .

والملح من المواد التى طالما أوحت بأوهام وتخيلات نسجت حوله :

يرى علماء السلالات أن الإنسان لم يشعر بفائدة الملح إلا عند انتقاله من حياة القنص وأكل اللحوم إلى حياة الزراعة : وذلك لأن البذور تتميز بنقص الصوديوم وكثرة البوتاسيوم ، ويرون أن ضرورة إضافة الملح إلى الخبز هى أصل العبارة الدارجة : « العيش والملح » التى تعبر عن الوفاء والإخلاص ، والتى اتخذت قسماً يحلف به . . ومن هنا اعتبر انسكاب الملح على موائد الطعام فألاً سيئاً ونذيراً بوقوع بغضاء ! .

وقد ورد الملح فى التوراة ضمن القرابين ، واستعمل الملح فى إنجيل متى رمزاً للفضل والجدارة ؛ إذ قال سيدنا عيسى إلى رسله : « إنكم ملح الأرض ، فإذا فسد الملح فماذا يملح ؟ إنه لايصلح بعد لشىء سوى الطرح والدهس » .

ونظر الرومان إلى الملح على أنه دعامة الحياة المتمدينة ، إلى حد أنهم عبروا عن حدة الذكاء وخفة الروح بكلمة Sales : أى الملح .

ونجد مثل هذا التعبير فى لغتنا إذ نصف المهارة والذكاء بالحذاقة ونقول « ملح الله فيه » : أى بارك الله عيشه و « ملح الشىء » أى بهج منظره فصار مليحاً ونقول حين نتعجب : « ما أملحه » : أى ما أحسنه ! و « ماحه » أى أكل معه ، وتملح « أى تكلف الظرف . . إلخ .

وفضلاً عن ذلك فقد نسب بعض القدامى إلى الملح روحاً حية هى التى تمنع تعفن اللحوم المملحة .

وعن الملح فى مصر ، روى بلوتارخ[١٣٦] أن الكهنة كانوا يتجنبونه ، ظناً منهم أنه من العناصر الموالية للإله (ست) ، وذلك لنشأته من البحر ، والبحر هو

(ست) ، لأنه يلتهم النيل فى آخر مجراه ، والنيل مصدر رخاء مصر ؛ كما شبهوا ثورة البحر وعواصفه بعنف (ست) وهياجه ، ولهذه الأسباب فإن الكهنة - على حد قول بلوتارخ - يبتعدون عن البحر وينبذون الملاحين ، ولا يضعون الملح على الموائد .

ثم جنح بلوتارخ إلى تفسير آخر لتجنب الكهنة الملح : وهو أنه ينبه العطش والشهية فيدفع إلى الشرب وكثرة الأكل ، وهذا غير مرغوب فيه ، وبصفة خاصة فى مواسم الصوم ، كما أنه يثير الرغبة الجنسية .

وهذه الخاصة الأخيرة - أى تنبيه الرغبة الجنسية - إنما هى فى تصوره سبب نعت أية امرأة على جانب من الفتنة والإغراء متجاوبة ، غير متمنعة ، ولا عنيدة - بأنها مالحة أو حذقة ، وكذلك قول الشعراء : إن أفروديت إلهة الحب كانت ابنة البحر المالح !

ومن جانب آخر نرى الملح مستخدماً فى بعض الطقوس الدينية فى مصر القديمة ، وتفيد النصوص أن كهنة آمون كانوا يحتلبونه من سيوة إلى الوادى لإهدائه إلى الحكام ، ويضيف بلينيوس صاحب هذه الرواية أن ملح آمون هذا استخدم دون غيره فى الطقوس الدينية لنقاوته .

ومن هذه التناقضات جميعاً يمكن - مع ذلك استخلاص عدة حقائق ، أبرزها : أن الملح المستخرج من البحر كان نجساً فى نظر الكهنة ومحرماً عليهم ، على حين سمح لهم باستعمال كميات معتدلة من الملح المعدَّن . أما الشعب فإنه لم يخضع لهذه البدع .